مقدمة

إنّ عبادة الله عز وجل هي وظيفة الإنسان الأساسية التي خلق لها على هذه الأرض.

- **قال تعالى:** ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ (الذاريات: ٥٦)

- **وبها أرسل جميع الرسل (عليهم السلام) ، قال تعالى:**

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾ (الأنبياء: ٢٥)

أولاً: مفهوم العبادة في الإسلام

تعريف العبادة:

تدل العبادة في اللغة على: الخضوع والتذلل والانقياد والاستسلام.

ويمكن تعريف العبادة اصطلاحاً بأنها: التوجه إلى الله تعالى بالأعمال الصالحة، حباً فيه ورجاء في ثوابه، واستشعاراً لعظمته وخوفاً من عقابه.

فمفهوم العبادة يقوم على ركنين:

١ـ الحب والخوف: فيجب أن يكون الله تعالى أحب إلى العبد من كل شيء، وفي الوقت نفسه أن يكون أعظم عنده وأخوف له من كلّ شيء، وبهذا يلاحظ أنّ المعنى الشرعي للعبادة لا يكتفي بعنصر الخضوع والذل، وإنما يشمل بجانب ذلك عنصر المحبة والرجاء.

قال تعالى: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ ﴾ الإسراء: ٥٧

ومن يتفكر في نعم الله تعالى عليه، يصل إلى درجة الحب له. ومن يتفكر في خلقه تعالى وما فيه من عظمة وإحكام وإبداع، يزداد استشعاره لعظمة الله تعالى وخشيته لجلاله، ولذلك كان العلماء أكثر الناس خشية لله.

أولاً: مفهوم العبادة في الإسلام

٢- العمل الصالح: يتكامل العمل الصالح مع حب الله تعالى وخشيته، إذ العمل الصالح هو الذي يُنمّي في النفس ذلك الحب وتلك الخشية، تماماً كما أنّ مشاعر الرحمة والشفقة تنمو بالعطف على الفقراء، وتضعف بالقسوة والظلم.

ولا معنى لادّعاء حب الله تعالى والخوف منه، ما لم يظهر أثر ذلك في السلوك.

ومن يزعم حبّ الله تعالى وخشيته، ثم هو يقصّر في عبادته أو يسرف في معصيته، فليس صادقاً في زعمه، وإلا لفاض ذلك الشعور على ظاهره، فلهج لسانه بذكر الله تعالى، واطمأنت جوارحه في عبادته.

قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ ﴾ آل عمران: ٣١

ويقول ابن تيمية:(ومن ظنّ أنّ الذنوب لا تضره، لكون الله يحبه مع إصراره عليها، كان بمنزلة من زعم أنّ تناول السم لا يضره، مع مداومته عليه وعدم تداويه منه).

ثانياً: شروط قبول العبادة في الإسلام

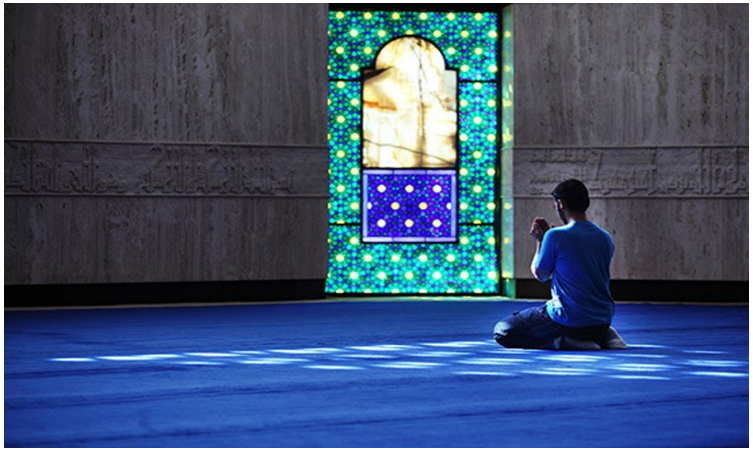

يشترط لقبول العبادة عند الله تعالى شرطان، هما:

١- **الإخلاص أو النية**: وهو التوجه إلى الله تعالى وحده بالعبادة، دون شرك أو رياء، ويلاحظ أن أكثر العبادات غير المفروضة، يُستحب أداؤها بطريقة سريّة، مثل: قيام الليل، وصلاة النافلة، وصدقة التطوع، لترسيخ الإخلاص في النفس.

٢- **وموافقة الشرع أو المتابعة**: وتعني أداء العبادة بالطريقة نفسها التي بيّنها الشرع، دون زيادة أو نقصان أو تغيير، ومن يخالف ذلك، ولو بنية التقرب إلى الله تعالى، لا يكون عمله مقبولاً، مثل من يصلي الظهر خمس ركعات مثلاً، زيادة في التقرب إلى الله تعالى. قال تعالى: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ ﴾ الشورى: ٢١

وقال النبي ﷺ: « من أحدث في أمرنا هذا ما ليس فيه فهو رد».

وقد جمعهما الله تعالى في قوله: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾ ﴾ الكهف: ١١٠

ثالثاً: أفضل العبادات في الإسلام

الذي عليه المحققون من العلماء: أنّ لكلّ حال عبادته الأفضل:

١- فأفضل العبادات حين يقتحم عدونا علينا بلادنا هو الجهاد، ولو آل هذا إلى ترك صلاة الليل وصيام النهار.

٢- وأفضل العبادات حين حضور الضيف إكرامه، ولو أدى إلى ترك النوافل.

٣- وأفضل العبادات وقت السحر الاستغفار.

٤- وأفضل العبادات للغني إنفاق المال في سبيل الله تعالى.

٥- وأفضل عبادة للعالم تعليم الناس وإرشادهم.

٦- وأفضل العبادات في العشر الأواخر من رمضان، لزوم المسجد والخلوة والاعتكاف.

رابعاً: خصائص العبادة في الإسلام

تتميّز العبادة في الإسلام بخصائص ، من أهمّها:

- الصلة المباشرة بين العبد وربّه
- اليسر ورفع الحرج
- الشمول
- الجمع بين الجانب الحسي والجانب المعنوي

١- الصلة المباشرة بين العبد وربّه

تقوم العبادة في الإسلام على علاقة مباشرة بين العبد وربه، دون وسطاء من البشر، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾ البقرة: ١٨٦

١- فلا يعرف الإسلام طبقة من رجال الدين يتواسطون بين الله تعالى وعباده، لا تقبل الصلاة ولا التوبة إلا عن طريقهم.

٢- كما لا يشترط الإسلام طقوساً ومراسم كهنوتيّة (أي: تحتاج إلى رجل دين) لا تُقبل العبادة إلا بها.

٢- اليسر ورفع الحرج

تمتاز العبادة في الإسلام بالسهولة واليسر، فليس فيها ما يشق على الناس ويخرج عن طاقتهم، قال تعالى:

﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ الحج: ٧٨

ولذلك يرفض الإسلام أن يشدد الإنسان على نفسه، ويبالغ في العبادة إلى حد يرهق جسده وروحه، ويؤثر على أدائه لواجباته الأخرى في الحياة، يقول النبي ﷺ: « خذوا من العمل ما تطيقون فإنّ الله لا يملّ حتى تملوا».

٢- اليسر ورفع الحرج

ويخفف الإسلام تكاليف العبادات المفروضة في ظروف المشقة والحرج إمّا:

تخفيفاً كلياً

بإسقاط العبادة كلها، مثل:

١- إباحة الإفطار في رمضان للمريض والمسافر.

٢- عدم وجوب الحج على العاجز عنه بدنياً أو مالياً.

تخفيفاً جزئياً

بإسقاط بعض العبادة أو بعض شروطها وهيئاتها، مثل:

١- إباحة قصر الصلاة في السفر.

٢- إباحة الجمع بين الصلوات لعذر كما في المطر.

٣- الشمول

تتميّز العبادة في الإسلام بالشمول لكل مجالات الحياة الإنسانيّة، ومن هنا قال العلماء العبادة نوعان:

١- العبادات المحضة (المخصوصة) وهي الشعائر الدينيّة المعروفة كالصلاة والصيام والحج.

٢- العبادات العامة: وهي كل عمل أو قول نافع، يقوم به الإنسان ابتغاء رضوان الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ ﴾ الأنعام: ١٦٢

وبهذا المعنى عرّف ابن تيمية العبادة بأنها: (اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة.

فالعبادة بمفهومها العام تشمل:

حسن المعاملة، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والإحسان إلى الجار واليتيم والمسكين وابن السبيل، والرحمة بالضعفاء، والرفق بالحيوان، وإصلاح ذات البَين، والعلم، والسعي في طلب الرزق، بل حتى الغريزة وقضاء الشهوة في الحلال، والأكل والنوم وممارسة الرياضة، كل ذلك عبادة، إذا صاحبه نيّة نيل رضوان الله تعالى.

ومن الأمثلة على العبادة بمفهومها العام: قول النبي ﷺ: (مرّ رجل بغصن شجرة على ظهر طريق فقال: والله لأُنَحِّيَنَّ هذا عن المسلمين لا يُؤذيهم فأُدخِلَ الجنة).

٣- الشمول

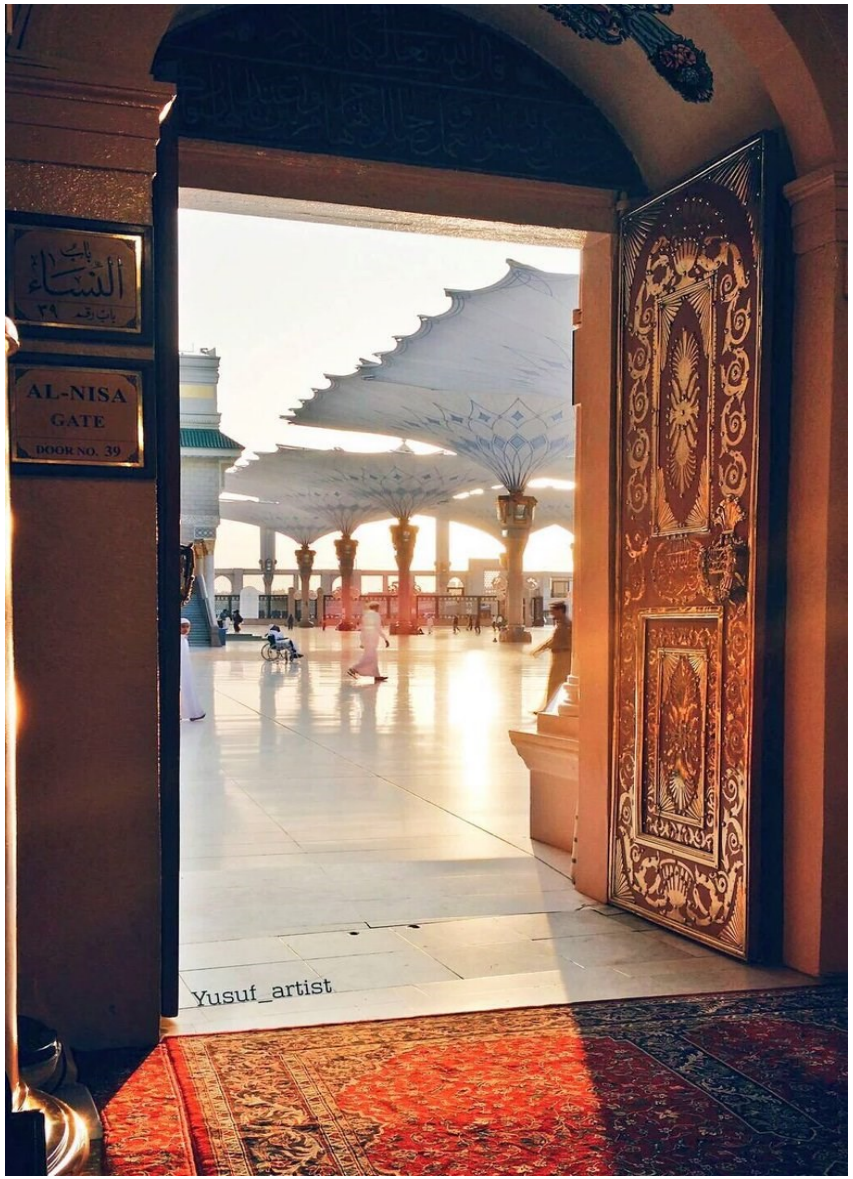

وبهذا المعنى الشامل للعبادة، يختلف الإسلام عن اتجاهين آخرين:

- **الاتجاه الأول: الفصل بين العبادة والحياة (العَلمانيّة)**

حيث يدعو هذا الاتجاه إلى حصر العبادة في أماكن خاصة بها، حتى إذا خرج الإنسان منها إلى سائر حقول الحياة وَدَّع العبادة وانصرف إلى شؤون دنياه.

ويرفض الإسلام ذلك، إذ الإسلام لا يريد العبادة من أجل العبادة، وإنما يريدها من أجل الحياة، فالعبادة في الإسلام لا تحصر المسلمين جدران المسجد، وإنما تجعل المسجد منطلقاً إلى كل نشاطات الحياة، تصبغها بصبغة العبادة.

٣- الشمول

▪ **الاتجاه الثاني: حصر الحياة في إطار ضيّق من العبادة (الرهبانيّة)**

حيث يدعو هذا الاتجاه إلى حصر الحياة كلّها في أماكن خاصة، في الكنيسة والمعبد والمسجد، كما يفعل المترهبنون، حيث يعتقدون أنّ الإنسان يعيش تناقضاً داخلياً بين روحه وجسده، ولا يتكامل في أحد الجانبين إلا على حساب الآخر، وكي يزكو روحياً يجب أن يحرم جسده من الطيبات ، ويقلّص وجوده على مسرح الحياة، ويمارس صراعاً مستمراً ضد رغباته وتطلعاته، حتى يتم له الانتصار عليها جميعاً عن طريق الكَفِّ المستمر والحرمان الطويل، والممارسات العباديّة المحددة.

ويرفض الإسلام ذلك أيضاً، إذ العبادة في الإسلام ليست روحانية رهبانية محضة تهمل الجسد، وترى التقرّب إلى الله تعالى بتعذيبه وإهمال تنظيفه وحرمانه من المتعة، قال تعالى:

﴿ وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ ﴾ القصص: ٧٧

وقال ﷺ: (أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له لكنّي أصوم وأفطر وأصلّي وأرقد وأتزوّج النساء فمن رغب عن سنّتي فليس منّي).

٤- الجمع بين الجانب الحسي والجانب المعنوي

إنّ الإنسان ليس مجرّد إحساس وبدن، كما أنه ليس مجرّد عقل وتفكير، وإنما هو مجموعهما.
وحينما يُراد من العبادة أن تؤدي دورها على نحو يتفاعل معه الإنسان تفاعلاً كاملاً، وينسجم مع تكوينه، ينبغي أن تشتمل على جانبين:

١- جانب حسّي تجسيدي
٢- وجانب معنوي تجريدي

وهكذا هي العبادات في الإسلام، يعيش المسلم معها فكراً وحساً، منطقاً وعاطفة، تجريداً ووجداناً.

المثال الأول: فالمصلّي في صلاته يمارس بنيّته تعبداً فكرياً، وينزّه ربه عن أيّ حدّ ومقايسة ومشابهة، وذلك حين يفتتح صلاته قائلاً: (الله أكبر) وذلك يمثّل الجانب المعنوي التجريدي، ولكنّه في نفس الوقت يتّخذ من الكعبة الشريفة شعاراً ربانياً يتوجه إليه بأحاسيسه وحركاته، وذلك يمثّل الجانب الحسي التجسيدي.

٤- الجمع بين الجانب الحسي والجانب المعنوي

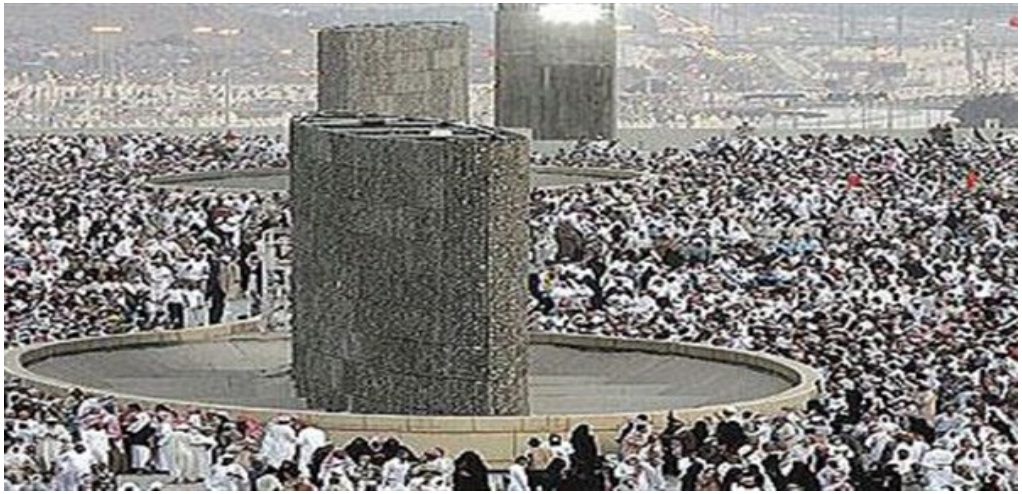

المثال الثاني: والبيت الحرام الذي يؤمّه الحاج والمعتمر ويطوف به، والصفا والمروة اللذان يسعى بينهما، وجمرة العقبة التي يرميها بالحصيات، والمسجد الذي خصص مكاناً للاعتكاف يمارس فيه المعتكف عبادته...**كل هذه الأشياء معالم حسيّة تجسيديّة رُبِطَت بها العبادة**، في حين تمثّل النية والإخلاص والمشاعر الداخلية **الجانب المعنوي في العبادة.**

٤- الجمع بين الجانب الحسي والجانب المعنوي

وبهذا يختلف الإسلام عن اتجاهين آخرين:

- **أحدهما: يُفرط في التركيز على الجانب العقلي التجريدي**

فيتعامل مع الإنسان كفكر مجرّد، ويشجب كلّ التجسيدات الحسيّة في مجال العبادة، على أساس أنّ الحق سبحانه لا يحدّه مكان ولا زمان، ولا يمثّله نُصب ولا تمثال، فيجب أن تكون عبادته قائمة على التفكّر المحض والتأمّل المجرّد.

أفكّر: يقوم المعالج النفسي بمعالجة العقد الإنسانية النفسية، بأعمال وتجسيدات حسيّة، دون الاكتفاء بالمحادثة والاقناع العقلي، لماذا؟

٤- الجمع بين الجانب الحسي والجانب المعنوي

- **والثاني: يُفرط في التركيز على الجانب الحسّي التجسيدي**

ويحوّل الشعار إلى تجسيد مادي محدود، يتوجه إليه بالعبادة، بحيث ينغمس العابد بشكل أو بآخر في الشرك والوثنيّة.

لقد ميّز الإسلام بعمق مفهوم الصنم الذي حطّمه ومفهوم القبلة الذي جاء به، وهو مفهوم لا يعني إلا أنّ نقطة مكانيّة معيّنة أسبغ عليها تشريف ربّاني، فربطت الصلاة بها، إشباعاً للجانب الحسي من الإنسان العابد.

وليست الوثنيّة في الحقيقة إلا محاولة منحرفة لإشباع هذا الجانب استطاعت الشريعة أن تصحح انحرافها، وتقدّم الأسلوب السويّ في التوفيق بين عبادة الله تعالى، بوصفها تعاملاً مع المطلق الذي لا حدّ له ولا تمثيل، وبين حاجة الإنسان المؤلّف من حسّ وعقل وجسد وروح.

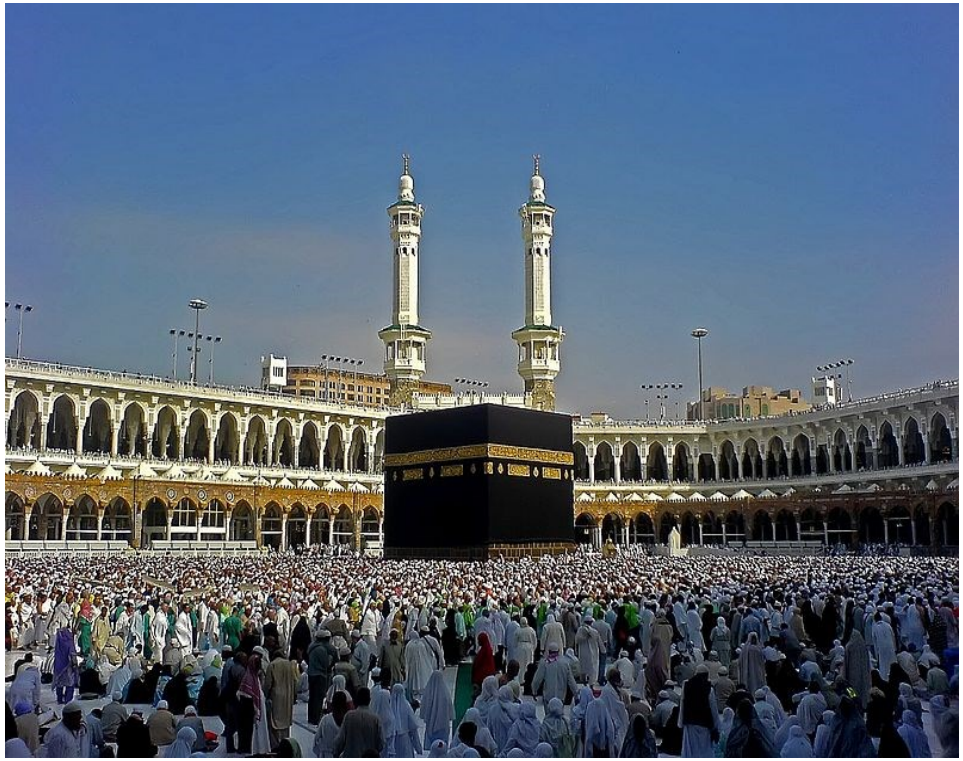

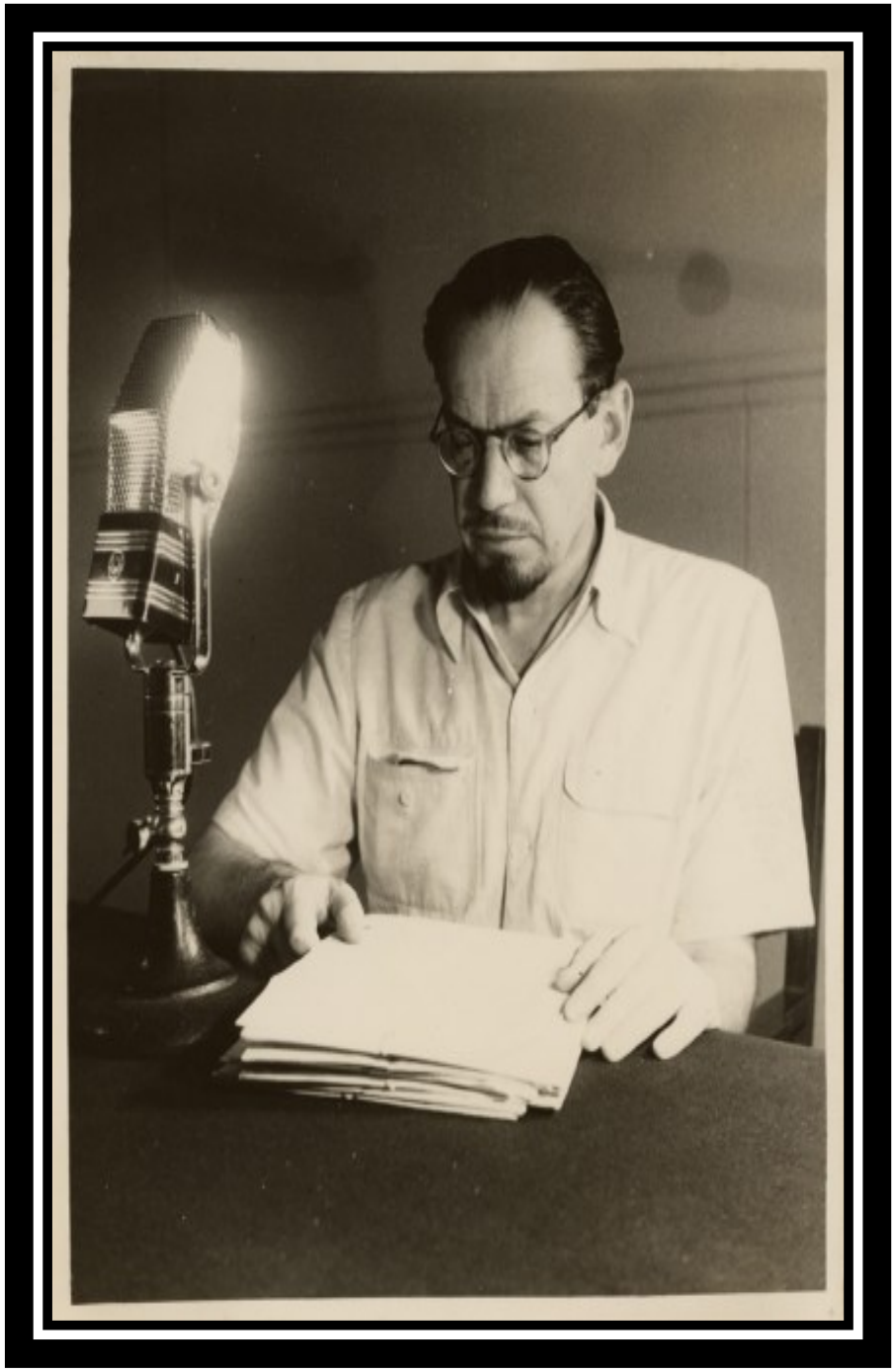

يقول المفكر النمساوي محمد أسد (ليوبولد فايس – سابقا): " إذا نحن دُرنا حول شيء ما فإننا نقرر أنّ هذا الشيء هو النقطة المركزيّة لعملنا. إنّ الكعبة التي يُولي كل مسلم وجهه شطرها في صلاته ترمز إلى وحدانية الله، وإنّ الطواف حوله يرمز إلى جهود الحياة الإنسانيّة، وهكذا نرى أنّ الطواف لا يعني أنّ أفكارنا الخاشعة وحدها فقط بل حياتنا العمليّة وأعمالنا وجهودنا أيضا، كلّ هذه يجب أن تتمثّل في نفسها فكرة الله ووحدانيته على أنها مركز لها.

٤- الجمع بين الجانب الحسي والجانب المعنوي

فالإسلام توسّط بين الاتجاهين المذكورين حيث:

١- رفض التجريد المحض، لأنه يخالف طبيعة الإنسان، ولا يُشعره بالاتصال الحقيقي بالله تعالى.

٢- كما رفض الوثنيّة بكلّ أشكالها، وحطّم الأصنام لأنها تقضي على روح العبادة وتعطّلها.

خامساً: آثار العبادة في الإسلام

ليست العبادة في الإسلام مجرّد شعائر ظاهريّة، لا هدف منها ولا أثر لها، وإنما تعود بآثار عظيمة على الفرد والمجتمع، منها:

- تحقيق الطمأنينة والسعادة والراحة
- تهذيب النفس وتقويم السلوك
- تحرير الإنسان
- الآثار الاجتماعية للعبادة

١- تحقيق الطمأنينة والسعادة والراحة

تلبّي العبادة الحاجات الروحيّة الملحّة عند الإنسان، ولذلك يجد الإنسان فيها طمأنينته وسعادته، ويشعر بلذة الاتصال بالله تعالى ومناجاته، وتشكّل له محطة يتقوى بها على مواجهة مصاعب الحياة ومتاعبها وهمومها،

قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾ الرعد: ٢٨

وقال تعالى: ﴿ وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ البقرة: ٤٥

وكان النبي ﷺ يجد راحته وسعادته في الصلاة، حتى إذا حضر وقتها، أمر بلالاً رضي الله عنه قائلاً: « يا بلال أقم الصلاة أرِحْنَا بها».

ظن الأغنياء أن السعادة
في المال
وظن الملوك أنها
في السلطة
والصحيح أن السعادة
في عبادة الله

٢- تهذيب النفس وتقويم السلوك

إنّ العبادة الحقة تهذّب نفس العابد، وتجبلها على فضائل الأخلاق وتنقّيها من الرذائل، وتجعل من صاحبها عنصر خير وبناء في مجتمعه، وتبعده عن الفواحش والظلم والبغي، ولذلك:

١- قرن القرآن الكريم بين العبادة وتزكية النفس، قال تعالى: ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ١٤ وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ١٥ ﴾ الأعلى: ١٤ - ١٥

٢- كما ربط بين العبادة والسلوك القويم في المجتمع، فقال تعالى: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ ﴾ العنكبوت: ٤٥

٢- تهذيب النفس وتقويم السلوك

ولكلّ شعيرة من شعائر العبادات في الإسلام أثر في نفس المسلم وسلوكه:

١- **فالصلاة:** تربي الإنسان على الخضوع لله تعالى وخشيته.

٢- **والزكاة:** تربي على الكرم والجود، وتنقي صاحبها من مظاهر الشح والبخل.

٣- **والصيام:** يعوّد الإنسان على الانضباط والصبر والتحكّم في شهواته.

٤- **والحج:** رحلة إلى مكان معيّن، يجتمع فيه الناس من كلّ حدب وصوب، بملابس معيّنة، بعيداً عن زخرف الدنيا، ليستشعر الإنسان رحلة الآخرة وجمع الناس ليوم عظيم.

٣- تحرير الإنسان

الإنسان مخيّر بين طريقين لا ثالث لهما: العبوديّة لله أو لغيره، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ ﴾ الإنسان: ٣

١- فإذا اختار عبادة الله تعالى: تحرر من الخضوع لغيره، إذ العبادة تربط صاحبها بخالق الخلق، الذي بيده الأمر كله، فيتحرر العابد من الخضوع للشهوات والأهواء، ويتحرر من الخضوع للطواغيت، ويتمرّد على كلّ ظلم واستكبار.

٢- وإذا لم يختر عبادة الله تعالى: فسيكون عبداً لشهواته وأهوائه وللشياطين والطواغيت، كما قال تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ الجاثية: ٢٣

٤- الآثار الاجتماعية للعبادة

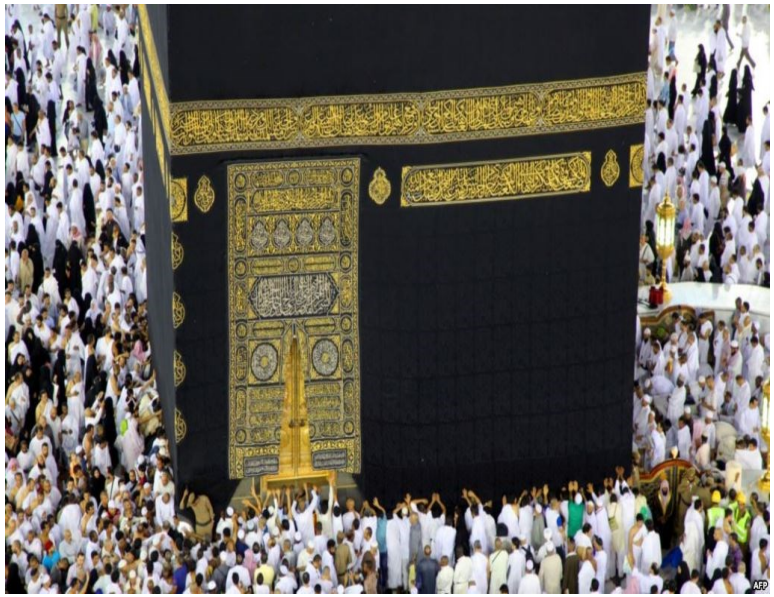

للعبادة في الإسلام آثار اجتماعية كبيرة، ومن مظاهر ذلك:

١- صلاة الجماعة: تذيب كلّ الفوارق الاجتماعيّة التي تميّز بين الناس، حين تجمعهم في صف واحد على اختلاف مستوياتهم الاجتماعيّة.

٢- والصيام: يذكر بالفقراء والإحساس بما يعانونه من ألَم الجوع، ويلفت انتباه المسلم إلى إخوانه، فيجود عليهم بما عنده، وتقوى الرحمة والمودة بين المسلمين.

٢- والحج: مؤتمر كبير يحضره أعداد كبيرة من المسلمين من شتى بقاع العالم، من كلّ بلد وجنس ولون، يجتمعون في مكان واحد وزمان واحد بلباس واحد ومناسك واحدة، ليجسّدوا معاني المساواة، ويتبادلوا المصالح والمنافع الدينيّة والدنيويّة، وتتحقق بينهم أعظم أواصر التكافل والتعاون والتناصح.